

الاعتصام

فصل ومنها : انحرافهم عن الأصول الواضحة .

ومنها : انحرافهم عن الأصول الواضحة إلى اتباع المتشابهات التي للعقول فيها مواقف وطلب الأخذ بها تأويلا - كما أخبر الله تعالى في كتابه - إشارة إلى النصارى في قولهم بالثالوثي بقوله : { فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله } وقد علم العلماء أن كل دليل فيه اشتباه وإشكال ليس بدليل في الحقيقة حتى يتبين معناه ويظهر المراد منه ويشترط في ذلك أن لا يعارضه أصل قطعي فإذا لم يظهر معناه لإجمال أو اشتراك أو عارضه قطعي كظهور تشبيهه فليس بدليل لأن حقيقة الدليل أن يكون ظاهرا في نفسه ودالا على غيره وإلا احتيج إلى دليل فإن دل الدليل على عدم صحته فأحرى أن لا يكون دليلا .

ولا يمكن أن تعارض الفروع الجزئية الأصول الكلية لأن الفروع الجزئية إن لم تقتض عملا فهي في محل التوقف وإن اقتضت عملا فالرجوع إلى الأصول هو الصراط المستقيم ويتناول الجزئيات حتى إلى الكليات فمن عكس الأمر حاول شططا ودخل في حكم الذم لأن متبع الشبهات مذموم فكيف يعتد بالمتشابهات دليلا ؟ أو يبنى عليها حكم من الأحكام ؟ وإذا لم تكن دليلا في نفس الأمر فجعلها بدعة محدثة هو الحق .

ومن الأمثلة أيضا أن جماعة زعموا أن القرآن مخلوق تعلقا بالمتشابه والمتشابه الذي تعلقوا به على وجهين : عقلي - في زعمهم - وسمعي .
فالعقلي أن صفة الكلام من جملة الصفات وذات الله عندهم برئية من التركيب جملة وإثبات صفات الذات قول بتركيب الذات وهو محال لأنه واحد على الإطلاق فلا يمكن أن يكون متكلمًا بكلام قائم به كما لا يكون قادرا بقدرة قائمة به أو عالما بعلم قائم به إلى سائر الصفات .
وأيضا فالكلام لا يعقل إلا بأصوات وحروف وكل ذلك من صفات المحدثات والباري تنزه عنها وبعد هذا الأصل يرجعون إلى تأويل قوله سبحانه : { وكلم الله موسى تكليما } وأشباهه .
وأما السمعي فنحو قوله تعالى : { الله خالق كل شيء } والقرآن إما أن يكون شيئا أو لا شيء ولا شيء عدم والقرآن ثابت هذا خلف وإن كان شيئا فقد شملته الآية فهو إذا مخلوق وبهذا استدل المريسي على عبد العزيز المكي C تعالى .

أما تركهم للقاعدة فلم ينظروا في قوله تعالى : { ليس كمثله شيء } وهذه الآية نقلية عقلية لأن المشابه للمخلوق في وجه ما مخلوق مثله إذ ما وجب للشيء وجب لمثله فكما تكون الآية دليلا على نفي الشبه تكون دليلا لهؤلاء لأنهم عاملوه في التنزيه معاملة المخلوق حيث

توهموا أن اتصاف ذاته بالصفات يقتضي التركيب .

وأما تركهم لمعاني الخطاب فإن العرب لا تفهم من قوله : { السميع البصير } و { السميع العليم } أو { القدير } وما اشبه ذلك إلا من له سمع وبصر وعلم وقدرة اتصف بها فأخراجها عن حقائق معانيها التي نزل القرآن بها خروج عن أم الكتاب إلى اتباع ما تشابه منه من غير حاجة .

وحيث ردوا هذه الصفات إلى الأحوال التي هي العالمية والقادرية فما ألزموه في العلم والقدرة لازم لهم في العالمية والقادرية لأنها إما موجودة فيلزم التركيب أو معدومة والعدم نفي محض .

وأما كون الكلام هو الأصوات والحروف فبناء على عدم النظر في الكلام النفسي وهو مذكور في الأول .

وأما الشبهة السمعية فكأنها عندهم بالتبع لأن العقول عندهم هي العمدة المعتمدة ولكنهم يلزمهم بذلك الدليل مثل ما مر وا\ لأن قوله تعالى : { ا\ خالق كل شيء } إما أن يكون على عمومته لا يتخلف عنه شيء أو لا فإن كان على عمومته فتخصيصه إما بغير دليل - وهو التحكم - وإما بدليل فأبرزوا حتى ننظر فيه ويلزم مثله في الإرادة إن ردوا الكلام إليها وكذلك غيرها من الصفات إن قرأوا بها أو الأحوال إن أنكروها وهذا الكلام معهم بحسب الوقت . والذي يليق بالمسألة أنواع آخر من الأدلة التي تقتضي كون هذا المذهب بدعة لا يلائم قواعد الشريعة .

ومن أغرب ما يوضع ههنا ما حكاه المسعودي وذكره الآجري - في كتاب الشريعة - بأبسط مما ذكره المسعودي واللفظ هنا للمسعودي مع إصلاح بعض الألفاظ قال : ذكر صالح بن علي الهاشمي قال : حضرت يوما من الأيام جلوس المهدي للمطالم فرأيت من سهولة الوصول ونفوذ الكتب عنه إلى النواحي فيما يتظلم به إليه ما استحسنته فأقبلت أرمقه ببصري إذا نظر في القصص فإذا رفع طرفه إلي أطرقت فكأنه علم ما في نفسي .

فقال لي : يا صالح أحسب أن في نفسك شيئا تحب أن تذكره - قال - فقلت : نعم يا أمير المؤمنين فأمسك فلما فرغ من جلوسه أمر أن لا أبرح ونهض فجلست جلوسا طويلا فقامت إليه وهو على حصير الصلاة فقال لي : يا صالح أحدثني بما في نفسك ؟ أم أحدثك ؟ فقلت : بل هو أمير المؤمنين أحسن .

فقال : كأني بك وقد استحسنت من مجلسنا فقلت : أي خليفة خليفتنا إن لم يكن يقول بقول أبيه من القول بخلق القرآن فقال : قد كنت على ذلك برهة من الدهر حتى أقدم علي الواصل شيخا من أهل الفقه والحديث من أذنة من الثغر الشامي مقيدا طوالا حسن الشبيه فسلم غير هائب ودعا فأوجز فرأيت الحياء منه في حماليق عيني الواصل والرحمة عليه .

فقال : يا شيخ أجب أبا عبد الله أحمد بن أبي داود عما يسألك عنه فقال : يا أمير المؤمنين أحمد يصغر ويضعف ويقل عند المناظرة فرأيت الواثق وقد صار مكان الرحمة غضبا عليه فقال : أبو عبد الله يصغر ويضعف ويقل عند مناظرتك ؟ فقال : هون عليك يا أمير المؤمنين أتأذن لي في كلامه ؟ فقال له الواثق : قد أذنت ذلك .

فأقبل الشيخ على أحمد فقال : يا أحمد إلام دعوت الناس ؟ فقال أحمد : إلى القول بخلق القرآن فقال له الشيخ : مقالتك هذه التي دعوت الناس إليها من القول بخلق القرآن أداخله في الدين فلا يكون الدين تاما إلا بالقول بها ؟ قال : نعم قال الشيخ : فرسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إليها أم تركهم ؟ قال : لا قال له : يعلمها أم لم يعلمها ؟ قال : علمها قال : فلم دعوت الناس إلى ما لم يدعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وتركهم منه ؟ فأمسك فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين هذه واحدة .

ثم قال له : أخبرني يا أحمد قال الله تعالى في كتابه العزيز : { اليوم أكملت لكم دينكم } فقلت أنت : الدين لا يكون تاما إلا بمقالتك بخلق القرآن فإني تعالى D صدق في تمام وكماله أم أنت في نقصانك ؟ فأمسك فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين وهذه ثانية .
ثم قال بعد ساعة : أخبرني يا أحمد قال الله تعالى D : { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته } فمقالتك هذه التي دعوت الناس إليها فيما بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأمة أم لا ؟ فأمسك فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين وهذه ثالثة ثم قال بعد ساعة : أخبرني يا أحمد .

لما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته هذه التي دعوت الناس إليها : اتسع له عن أن أمسك عنهم أم لا ؟ قال أحمد : بل اتسع له ذلك فقال الشيخ : وكذلك لأبي بكر ؟ وكذلك لعمر ؟ وكذلك لعثمان ؟ وكذلك لعلي ؟ رحمة الله عليهم قال : نعم فصرف وجهه إلى الواثق وقال : يا أمير المؤمنين : إذا لم يتسع لنا ما اتسع لنا ما اتسع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه فلا وسع الله علينا ثم قال الواثق : اقطعوا قيوده فلما فكت جاذب عليها فقال الواثق : دعوه ثم قال : يا شيخ لم جاذبت عليها ؟ قال لأنني عقدت في نيتي أن أجاذب عليها فإذا أخذتها أوصيت أن تجعل بين يدي وكفي ثم أقول : يا ربي سل عبدك : لم قيدني ظلما وارتاع بي أهلي ؟ فبكى الواثق والشيخ وكل من حضر ثم قال له الواثق : يا شيخ : اجعلني في حل فقال : يا أمير المؤمنين : ما خرجت من منزلي حتى جعلتك في حل إعظاما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولقرابتك منه فتהל وجه الواثق وسر ثم قال له : أقم عندي آنس بك فقال له : مكاني في ذلك الثغر أنفع وأنا شيخ كبير ولي حاجة قال : سل ما بدا لك قال : يأذن أمير المؤمنين في رجوعي إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم قال : قد أذنت لك وأمر له بجائزة فلم يقبلها فرجعت من ذلك الوقت عن تلك المقالة وأحسب أيضا أن الواثق رجع عنها .

فتأملوا هذه الحا \ كاية ففيها عبرة لأولي الألباب ز وأنظروا كيف مأخذ الخصوم في

لإفحامهم لخصومهم بالرد عليهم بكتاب ا وسنة نبيه A .

ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد وهو الجهل بمقاصد الشرع وعدم ضم

أطرافه بعضها لبعض فإن مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تؤخذ الشريعة

كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها وعامها المرتب على

خاصها ومطلقها المحمول على مقيدها ومجملها المفسر بينهما إلى ما سوى ذلك من مناحيها

فإذا حصل للناظر من جملةتها حكم من الأحكام فلذلك الذي نظمت به حين استنبطت .

وما مثلها إلا مثل الإنسان الصحيح السوي فكما أن الإنسان لا يكون إنسانا حتى يستنطق فلا

ينطق باليد وحدها ولا بالرجل وحدها ولا بالرأس وحده زلا باللسان وحده بل بجملةتها التي سمي

بها إنسانا كذلك الشريعة لا يطلب منها الحكم على حقيقة الاستنباط إلا بجملةتها لا من دليل

منها أي كان نطق ذلك الدليل فإنما هو توهمي لا حقيقي كاليد إذا استنقطت فإنما تنطق

توهما لا حقيقة من حيث علمت أنها يد إنسان لا من حيث هي إنسان لأنه محال .

فشأن الراسخين تصور الشريعة صورة واحدة يخدم بعضها كأعضاء افنسان إذا صورت صورة مثمرة

.

وشأن متبعي المتشابهات أخذ دليل ما أي كان عفوا وأخذا أوليا وإن كان ثم ما يعارضه

من كلي أو جزئي فكأن العضو الواحد لا يعطى في مفهوم أحكام الشريعة حكما حقيقيا فمتبعه

متبع متشابه ولا يتبعه إلا من في قلبه زيغ كما شهد ا به : { ومن أصدق من ا قولا }